تَحْيِيزُ التَّاريخ

(قضية في منهجية كتابة التاريخ)

أ. د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

أستاذ التاريخ والحضارة - كلية الآداب - جامعة صنعاء

سبق أن كتبت عن قضية من قضايا منهجية كتابة التاريخ، كان عنوانها (الحساسية التاريخية.. هل من سبيل إلى علاجها؟!) نشرت في مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء - العدد (٣٠) لسنة ٢٠٠٧م، وهاأنذا أكتب هنا عن قضية أخرى هي (تحييز التاريخ)..

إلا أن هذا العنوان يحتاج منا إلى وقفة.. وإن كانت مُمِلَّة إلا أنها وقفة ضرورية للتعريف بالدلالة اللغوية لكلمة التحييز.

التَّحْيِيْز.. والتَّحَيُّز بمعنى: التنحي، وحزت الشيء إذا أحرزته، وجعلت له حدوداً.. والحَيِّزُ: جعل كل ناحية على حدة.. والحَوْزة: الناحية والجانب.. والحوز: موضع يحوزه الرجل.. وحاز الشيء: ضمه.. والانحياز: الانضمام إلى حيز.. وتحيز الرجل.. وهو متحيز لفلان: منضم إليه[1].

فالتحييز - إذن - في موضوعنا هو: وضع التاريخ في حيز محدد، وفي ناحية معينة، وجَعْلَه محصوراً في فهم خاص، أو في إطار مغلق.

لذلك فكثير من الدارسين يغلق على نفسه أبواب المعرفة، ويتخذ سبلاً ضيقة، ولا يفتح إلا كُوَّاتٍ صغيرة إلى هذا العلم أو ذاك.. بينما الإنسان بحكم أنه اللاعب الأول والأخير على مسرح الأرض، والبطل الوحيد الذي يقوم بكل

---

(١)انظر: ابن منظور. لسان العرب ٢/١٠٤٥- ١٠٤٨، ١٠٦٩. مادتي: حوز، وحيز - والمعجم الوسيط ٢٠٦، ٢١١.

مادتي: حوز، وحيز.

الأدوار في مسرحية الحياة.. هذا الإنسان يمارس نشاطه المعرفي في كل مناشط الحياة، ومن ثم فإن التداخل، والتمازج، والتلاحم، والتقابل، والتزاوج، والتوازي، والتقاطع في حياته هو الأصل.. أما التمزيق، والتفتيت لهذا الكيان فهي حركة هادمة للإنسان، محطمة للدور المناط به، وتؤدي إلى تكبيل الإنسان بقيود غريبة عنه، ولا تجعله طليقاً مبدعاً..

إن الإنسان كيان واحد، لا يفصل منه جزء عن جزء آخر.. وحينما يسعى بعض الدارسين إلى اجتزاء جزء من حياة الإنسان لدراسته لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يكون هذا العمل سبيلاً إلى تفتيت أوصال الإنسان. وإنما تكون مجرد محاولة جادة، وواقعية لدراسة هذا الجانب، ثم وصله بالجوانب الأخرى حتى يبقى كيان حياة الإنسان كما هو وحدة متكاملة..

أما إذا أخذنا ذلك الجزء، وفَصَلْناه عن الجسم العام وصرنا متعلقين به، متشبثين بمنهجية خاصة للتعامل معه، وجعلناه شِطراً منفصلاً فنكون كمن أخذ عضواً من جسم الإنسان كاليد مثلاً، وظل يتعامل معها بكل ما أوتي من قدرات منهجية، ودراسية، ومعرفية.. على أنه كل الكيان الإنساني.. إن هذا العمل هو ظلم للإنسان، وهو معادٍ للمنهجية العلمية، ومجافٍ لما ينبغي أن يكون من تعامل مع وحدة الإنسان الذي بحركته، وأنشطته صنع التاريخ.

من ينبوع هذه الاستهلالية نستطيع أن نحدد مجموعة من (التحييزات) غير المنهجية، المجانبة للصواب، التي جعلت الدراسات التاريخية في بعض الجامعات العربية مكبلة بقيود نشأت من هذا التحييز..

هناك دراسات تاريخية تتحوصل حول الصراع على مقاليد الحكم في ملاحم دموية متواصلة ومتداخلة، وكأنها حلقات كل حلقة تأخذ بناصية الحلقة التالية..

وإذا ما تصدى بعض الباحثين لدراسة حضارية.. نجد الحرج ينتاب الأوساط العلمية في مجالس الأقسام العلمية، والمراكز الدراسية.. هذا الحرج يكمن في الذي يمكن أن يدخل ضمن الدراسات الحضارية.. وتبدأ عملية الانتقاء والاختيار والتحييز التاريخي، والتحذيرات، وعمل الاحترازات المختلفة.. كأن يكون لابد من إضافة عبارة بين قوسين (دراسة تاريخية) أو (دراسة حضارية)، أما لو تجرأ باحث فاختار موضوعاً يتعلق بجانب من النشاط الإنساني الفكري، أو التشريعي الفقهي.. أو الاجتماعي التفصيلي.. فتنطلق الآراء والاجتهادات المُنَظَّرة بأن هذه دراسات لا تخص التاريخ.. فهذه لها أقسامها ولها رجالها.. وترتفع عقيرة المحامين عن التاريخ ليصدوا عنه سهام الغزو والسطو!!! فالتاريخ علم مستقل بذاته فلا يدمج في العلوم الأخرى!! وإذا كان لابد فهو قد يستعين ببعض العلوم فقط.. فهي علوم مساعدة!!.

ورغم هذه الثورة نجد دراسات - بحسب التصنيف التجزيئي ذاك - لا تدخل ضمن دراسات التاريخ مثل دراسات عن الآلهة اليونانية، والآشورية، والبابلية، والحميرية والفرعونية.. ومعابد الوثنيين، وطرق صلواتهم، ومراسيم شعائرهم، بل ونقل عبارات مسجوعة عن فروض الطاعة المقدمة للآلهة، ولا تجد من يعترض على هذا!! وقد تتساءل عن السر فتجد الجواب حاضراً: لقد كتب الغربيون عن ذلك، وأدخلوها ضمن دراساتهم التاريخية!!.

أما لو أراد من يدرس في قسم التاريخ أن يكتب، أو ضَمَّنَ دراسته بعضاً من أثر العبادات والشعائر الإسلامية على واقعٍ ما لخرجت عليه جيوش المنتقدين الرافضين، لتئد الفكرة من أساسها مرددين: بأن هذا النوع من الدراسات لا صلة له بالتاريخ.. يا الله!! فلماذا ذبح القرابين للأوثان له صلة بالتاريخ.. ؟ وغيره لا صلة له.. ؟ ألم أقل لكم إنه تحييز التاريخ.. وقس على هذا بقية الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية.. الخ، بينما لو أُتيحت الفرصة لمن يدرس

مثلاً الاجتهادات الفقهية، والفتاوى الصادرة في زمن ما لخرجنا بصورة صادقة عن طبيعة ذلك العصر، وطريقة تفكيره، والمشاكل التي كانت تواجهه، وكيف وضع لها ضوابط من الشرع.. وهكذا لو درس النشاط الأدبي - شعره ونثره - في عصرٍ ما فإننا سنجد من خلاله نوعاً من الحياة لن نجده في الروايات التاريخية. ورغم هذه الأهمية لمثل هذه الدراسات إلا أنها ستُقابَل بالرفض التام.

والأغرب من هذا أن حركة تنميطية جرت عبر أجيال في أوساط بعض الجامعات العربية في العصور المتأخرة استهدفت الوصول إلى إيجاد توصيف خاص للمؤرخ.. فلو كتب في التاريخ من لم يكن قد حمل شهادات من أقسام التاريخ فإن كتابته تعد غير علمية!!

ومن ثم تنطلق كلمات التحييز الوصفي فيقال هذا فقيه، وذاك قاضي، والآخر عسكري، والرابع تربوي.. الخ.. وكأن الذي يراد له أن يكتب في التاريخ لابد أن يكون قد خرج من بين ركام التاريخ وغباره، وصار يعيش في عصر غير عصره.

ورغم هذا تجد أولئك الذي كان لهم دور في صناعة هذا التنميط يستندون في بحوثهم إلى دارسين غربيين أصل دراستهم لا علاقة لها بالتاريخ.. فواحدٌ كانت دراسته في الإلهيات[1]، والثاني كان في الفلسفة، والثالث كان في الترميم، والرابع كان قسيساً، وهكذا.. ولقد جُعِلتْ كتابات هؤلاء مصادر مرجعية لا رَادَّ لما جاء فيها.

وهكذا تجد نفسك أمام (شاشة) تُقلِّب المناظر بسرعة عجيبة، ولا يستطيع نظرك أن يستقر على منظر واحد، وفجأة تتوقف ويتركز نظرك على منظر معين، لكي تقتنع بأن هذا هو المطلوب الوحيد، وما عداه لا علاقة لك به.

(١) فلهوزن (ت ١٩١٨م) اليهودي الألماني كانت دراسته الأولى في اللاهوت، ثم إذا به يتصدى للتاريخ الإسلامي (انظر: العفيفي. المستشرقون ٢/٣٨٦).

انك لو قَلَّبْتَ تراجم المؤلفين في التاريخ من الأوربيين لوجدت معظمهم لم يتخصص في التاريخ منذ البداية، ومع هذا يعد مرجعاً في التاريخ.. فمثلاً أكثر المتخصصين في الآثار الشرقية هم قساوسة درسوا علم اللاهوت وصاروا مراجع في دراسات الآثار الشرقية[1]، أو أن بعضهم ممن تخصص بالعلوم عند العرب ليصبح بعد ذلك أحد من يرجع إليهم رغم أن دراسته الأولى في الهندسة، ثم صار كاهناً، ثم كتب في تاريخ الحضارة وهو كاهن[2]..

ولا أبتغي هنا أن آتي بالأمثلة فهي كثيرة، بل أكثر من أن تحصى ولكن فقط أشير إلى بعض منها لتذكير من يريد أن يتذكر فقط.

ومن جوانب التحييز التاريخي: التفسير الجزئي للتاريخ.. إنه تفسير اعتدى على الإنسان ومزقه إرباً إرباً!!

فالذي يفسره على أساس الحيوانية، والذي يفسره على أساس الشهوة الجنسية، والذي يفسره على أساس الشهوة البطنية، والذي يفسره على أساس الصراع على المصالح، والذي يفسره على أساس صراع الطبقات، والذي يفسره على أساس البقاء للأقوى..

والاتجاه الأغلب لتفسير التاريخ هو التفسير الاقتصادي للتاريخ، ومن ثم يرتبط بهذا التفسير صراع المصالح، وتدمج معه كل نزعات الإنسان ورغباته، وتطلعاته، ووشائجه.. وكأن الإنسان صار حيواناً يتصارع مع غيره من الحيوانات على الفريسة التي وقعت بينهما فأيهما يغلب تكون من نصيبه، وتُنْسَى في ظلمات هذا التفسير الخصائص التي تميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات على ظهر هذا الكوكب.

(١) انظر: العفيفي. المستشرقون ٢٤٩/٣- ٢١٦. يتحدث في هذه الصفحات عن (المستشرقون الرهبان).

(٢) نفسه ٢٧٣/٣، ٢٧٤. الأب (بوالو) المولود عام ١٩١٢م مثالاً على هذا.

إن التفسير الاقتصادي للتاريخ يربط الأحداث كلها بهذا اللون من النشاط الإنساني، ومن ثم يؤدي إلى تزييف مُتَعَمَّدٍ للتاريخ، وامتهانٍ واحتقار للإنسان، لأنه يلغي كليةً التفسير الأخلاقي والقِيَمِي للإنسان..

ومن الكوابح المنهجية التي عملت على التحييز التاريخي ما يتردد - وبقوة - في أوساط الدارسين للتاريخ بأن من كتب في التاريخ اليوناني أو الآشوري - مثلاً - لا يمكن أن يكتب عن التاريخ الإسلامي، ولا الحديث، والعكس صحيح.. ويعد هذا قانوناً صارماً. ومن تعداه فقد أتى بالبوائق، وكلامه ساقط لا قيمة له، لأنه ليس متخصصاً.

إن التحييز الزماني لمن يكتب في التاريخ يعد حصراً لمن يريد الكتابة التاريخية في قواقع ضيقة جداً، وصار ليس من حقه أن ينتقل من حقل إلى حقل، ولا من زمن إلى زمن.. رغم إجادته لما يكتب. ومن ثم أدت هذه القيود إلى أن تموت خلايا المخ الإبداعية عند الباحثين، لأن جَفَافاً وتصلباً أصاب شرايينها، فتوقفت عن العمل، وكأنها عملية مقصودة كي يموت الإبداع..

بينما قادة المدارس الفكرية في أوربا الذين يُقْتَدَى بهم في الأوساط العلمية في الجامعات العربية برعوا في مجالات شتى ولم يُتَّهَمُوا بجهلهم، ولا بتطفُّلِهم على التاريخ، فتجد الواحد منهم - مثلاً - يكتب عن الكتابات السبئية الحميرية تارة، وعن الفارابي تارة، وعن القبائل العربية تارة.. وهكذا[1]، ومع ذلك لا تجد من يعترض على فعل هذا، بل يعد مصدراً يُتَلَقَّى منه. فلماذا يباح الشيء لأناس ويحرم على أناس؟ !! أم أن هناك خُطَّة خَفِيَّة لتجفيف منابع الإبداع في عقول الأجيال التي تعيش في هذه البلدان؟ !!

(١) انظر: العفيفي. المستشرقون ٢/٢٦٩. ترجمة الأب جوسين - ومن الأمثلة الصارخة: بروكلمان (ت ١٩٥٦م) جال وصال في علوم كثيرة.. من تحقيق وتأليف، تارة في اللغة، وتارة في النحو، وتارة في التاريخ، وتارة في البلاغة والبيان ودراسة في اللغة العثمانية. واللغة المصرية القديمة وغيرها (انظر: العفيفي. المستشرقون ٢/٤٢٤- ٤٣٠).

وتدليلاً على هذا أنك تلحظ بعض الحاملين لشهادة الدكتوراه قد تكلست عقولهم من عدم البحث في واحات العلوم المختلفة، وإذا ما سألته عن سبب توقفه يخبرك بحسرة تتبعها حسرة أن الموضوعات قد قُتِلَتْ بحثاً من قِبَلِ من سبقه فلم يجد ما يبحثه.. وإذا ما تساءلت لماذا؟ ستكون الإجابة: إنني لابد من البحث في المجال الفلاني، والزمن الفلاني، ولا توجد موضوعات تستحق الدراسة، وعندي موضوعات في غير هذا الإطار الزمني والموضوعي، ولكنه غير مقبول!!. وهكذا وضع عقل الدارسين للتاريخ داخل حلقة حديدية ضاغطة، تضل تضغط، ثم تضغط حتى تتهشم جمجمته، أو تتصلب، وتصبح لا نفع منها..

إن التَّحْيِيْز التاريخي زمناً، ومنهجاً، وموضوعاً، ومعرفةً، يعد - في نظري - جريمة كبرى في حق الدارسين للتاريخ في أوساط الجامعات في العالم الإسلامي، وأي تشجيعٍ أو تثبيتٍ لهذا التَّحْيِيْز يعد استمراراً في التجهيل المنظم - قصدناه أم لم نقصده - لأن العقل البشري ليس من حق أحد أن يحجره في إطار محدد، وإذا ما حصل شيء من هذا القبيل فإن من يقوم بهذا الحجر لابد من الأخذ على يديه وبقوة، وإخضاعه للمحاسبة بل وللمحاكمة والعقاب؛ لأن هذا نوع من العبودية القاهرة التي ليس لأحد أن يمارسها على أحد من عباد الله (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، حتى ولو كانت الدعوى بأن هذا منهج تنظيمي علمي، ونحن نسعى إلى حمايته حتى لا يدخل في هذا العلم من ليس من أهله.. فهي دعوى باطلة ولا أساس لها من الصحة.

وخذ بعض الأمثلة من واقع المصادر التاريخية في التاريخ الإسلامي: السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) مثلاً.. فقد كان موسوعياً في علومه ومعارفه وما وُجِدَ كتابٌ أو رسالة من آثاره إلى وكان مصدراً يستفاد منه. وإمام المؤرخين الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) أليس إماماً في الفقه، وإماماً في التفسير، وإماماً في أصول العقائد؟ !. والواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) أليس قاضياً ومؤرخاً بارعاً؟ !. والجندي

(ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) أليس فقيهاً وقاضياً ومؤرخاً أصيلاً لتاريخ اليمن؟ !. وبامخرمة (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) القاضي المؤرخ!!. والشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) الفقيه، المحدث، الأديب، القاضي.. المؤرخ.. وفي كل علم كان إماماً يقتدى به!!.

إن القائمة طويلة.. بل وطويلة جداً..

إنني أتساءل: لماذا هذا الحجر على عقولنا؟ بينما المعارف التي جعلها الله لنا واحة من حقنا أن نسيح فيها، ونبدع في كل ميدان نستطيع أن نبدع فيه.. لماذا هذا التحييز المقصود؟؟ هل هناك نوايا خبيثة من وراء هذا الحجر أو التحييز الذي يعني جعل دارس التاريخ يدور في حيز محدود لا يسمح له بتجاوزه سواء في نوعية ما يكتب.. أو في زمن ما يكتب عنه.. ؟!!

ولا يعني ما أقول أن تتاح الفرصة لكل من هب ودب، بمنهجية أو بدونها.. كلا.. لا أظن أن أحداً يفهم هذا.. ولكنني أدعو إلى أن تكون الكتابة منهجية، تقوم على قواعد البحث العلمي الرصين، ولكن لا نسعى إلى تأطير الكتابة في أطر تحول دون الإبداع.

ولا نكيل بمكيالين - بحسب التعبير السياسي الذي يتردد في وسائل الإعلام اليوم - فنفتح الباب لنوع من الدراسات التاريخية والحضارية، ونقفل الباب على نوعٍ آخر من دراسات هي في الحقيقة تاريخية وحضارية، إلا أن التنميط الفكري أدّى إلى وصفها بأوصافٍ أخرى.

إننا لو فتحنا الباب لهذه الدراسات المتنوعة سنجد ألواناً منها في غاية الروعة، وغاية الفائدة.

تُرَى.. هل هذا الطَّرْق على باب المعرفة التاريخية سيسمعه أحدٌ، ويسعى إلى أن يجعل الباب (مُوَارَبَاً) لمن يحب أن يدخل؟ !!.